

## سيكولوجية المسنين من المنظور الإسلامى (\*)

أ . د . فؤاد أبو حطب  
أستاذ علم النفس التربوى  
كلية التربية جامعة عين شمس

فى عام ١٩٨٧ صدرت الطبعة الأولى من كتابنا (نمو الإنسان : من مرحلة الجنين إلى مرحلة المسنين لفؤاد أبو حطب وآمال صادق والذى تطور عدة مرات خلال السنوات اللاحقة) . وقد وجه تصنيف مراحل النمو فى هذا الكتاب تقسيم القرآن الكريم لها فى قوله تعالى :

(الله الذى خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم من بعد قوة ضعفاً وشبيهه ، يخلق ما يشاء ، وهو العليم القدير) (الروم : ٢ ، ١) .

وقد عبر الكتاب عن هذه المراحل الثلاث الكبرى بما أسميناه (الأعمار الثلاثة) فى حياة الإنسان . أى أننا ام نلتزم بالتقسيم الشهير لنمو الإنسان وإنما سرنا على نهج جديد يتفق مع هذا التقسيم الحكيم : إلى مرحلتين للضعف بينهما مرحلة قوة هى مرحلة الرشد .

والضعف الأول (ضعف الطفولة والصبا والشباب) هو ضعف التحول إلى الرشد ، أما الضعف الثانى (ضعف الشيخوخة والهرم) ، فهو ضعف التحول عن الرشد .

والعمر الأول للإنسان (الضعف الأول) هو تلك المرحلة الكبرى التى تبدأ بتكوين الجنين فى الرحم وتنتهى بدخول الإنسان عالم الراشدين وهو مرحلة تتسم بالضعف حسب الوصف القرآنى لها ، إلا أنه ضعف التحول إلى القوة (أى الرشد) ولهذا نلاحظ على هذه المرحلة الكبرى تحسناً مستمراً مضطرباً يوماً بعد يوم وعماماً

(\*) ورقة أقيمت فى ندوة (رعاية المسنين من المنظور الإسلامى) التى عقدت ضمن برنامج المؤتمر الإقليمى الأول لرعاية المسنين الذى نظمه مركز الرعاية الصحية والاجتماعية للمسنين بجامعة حلوان (٣-٥ ابريل ٢٠٠٠) .

بعد عام تحقيقاً لهذه الغاية ويتضح ذلك من الأطوار التي استخدمنا المصطلح القرآني في وصفها : النطفة الأمشاج - العلقة - المضغة - العظام والعضلات - (اللحم) - التكوين والتسوية ، وكلها تخص الجنين . ثم مراحل ما بعد الولادة والتي التزمنا في تقسيمها المصطلح القرآني أيضا ، في الطفولة قسمت إلى أطوار الوليد ، الرضيع الحصنين ، حتى طور التمييز . أما ما أصطلح على تسميته بالمرحلة والشباب فقد أسميناه طور بلوغ الحلم وطور بلوغ السعي .

ومع تقدم الإنسان في النمو في عمر ضعفه الأول تزدادا قوته توجهها نحو الرشد الذي هو العمر الثاني للإنسان كما وصفناه أي الرشد الإنساني والقوة البشرية والذي يمتد إلى أن يصل بالإنسان إلى ضعفه الجديد مع الشيخوخة .

وقد جاء عرضنا لهذه الفترة الكبرى من حياة الإنسان من خلال تجسيد محكات الرشد وحدوده موجّهين في ذلك بالمحك الإسلامي .

وفي تقسيم هذا العمر إلى مراحل وأطواره كان التزامنا كالتالي في المراحل والأطوار السابقة - بالتوجيه الإسلامي . ولذلك قسمناها إلى طورين : طور الشيخوخة السوية - وطور أرذل العمر . مع التأكيد على أن النمو الإنساني دورة حياة وليس مراحل منفصلة متقطعة .

### محكات الرشد

ينبه القرآن الكريم إلى أن الحكم على الإنسان بالرشد أمر يحتاج إلى التعرف على علاماته و(إيناس) استعاراته (في اللغة العربية آنس الأمر إيناساً أي علمه . ومنه آنست منه رشداً . وهو أمر يحتاج إلى خبرة العلم ونتائجه ومنه علم النفس . يقول الله تعالى : (وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم) . (النساء : ٦)

وهكذا يفتح القرآن الكريم للإنسان باب الاجتهاد والبحث في المحكات التي يجب أن يعتمد عليها في الحكم على من بلغ الحلم (المراهق) أو بلغ السعي (الشاب) بأنه بلغ الرشد .

وبالطبع فإن محك العمر (بلوغ سن معين) ليس كافياً ، وإنما التفضيل هنا للعوامل الثقافية والاجتماعية . وهذا ما اتفق عليه فقهاء المسلمين في تعريفهم للرشد بأنه (بلوغ الصبى ، صالحاً في دينه مصلحاً لما له) وحسن التصرف في المال - كعلامة من علامات الرشد - يعني أن الفرد قادر على شغل مكانته في المجتمع والقيام بمسؤولياته فيه .

وقد نبه القرآن الكريم إلى أهمية هذا المحك فى قوله تعالى عند الإشارة إلى السفه - وهو عكس ونقيض الرشد - (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما ...).

كما يشير إلى هذا المحك الاجتماعى أيضا عند الإشارة إلى ما يجب عمله عند التحقق من بلوغ الصبى طور الرشد .

(فإن أنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم) .

ولم يتنبه العلماء الاجتماعيون إلا مؤخراً إلى أهمية محك الأدوار الاجتماعية فى تحديد الرشد ، باعتباره يفوق محك العمر الزمنى أو النضج البيولوجى . ولهذا فإن الشخص الذى يوصف الآن بالرشد إنما هو الشخص الذى تحول إلى أدوار جديدة (كسب العيش - الزواج - الوالدية ، إلخ) .

وتتطلب هذه الأدوار توافر مؤشرين سيكولوجيين هامين هما :

١ - الاستقلال : هو مع الرشد يشعر المرء أنه مسؤول عن نفسه وعمن يعول ، ويتخذ قراراته بنفسه دون حاجة مستمره إلى دعم الآخرين ، ويتجه الاستقلال على وجه الخصوص إلى تلك القرارات التى تتصل بحياة الراشد الشخصية سواء كانت هذه القرارات تافهة أو هامة . ثم انه لا يجب أن يتدخل الآخرون فى هذه الشؤون ويتحمل المسئوليات والنواتج المترتبة عليها .

٢ - الرغبة المستمرة فى التعلم : من المؤشرات السيكولوجية للرشد الرغبة المستمرة - بل والمتزايدة فى التعلم - وخاصة التعلم الذاتى الذى يتفق جوهره مع مؤشر الاستقلال . فإذا توقف الراشد عن التعلم كان هذا علامة النهاية من الناحية السيكولوجية .

وقد أشار القرآن الكريم إشارة صريحة إلى أهمية التعلم فى حياة الإنسان فهو نقطة البدء وبه تستمر الحياة .

(والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) .

واعتبر التوقف عن التعلم علامة النهاية من الناحية السيكولوجية فى حياة الراشدين فقد وصف القرآن الكريم مرحلة الشيخوخة المتأخرة (أرذل العمر) يقول تعالى :

« ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا » (الحج ٥)

وإذا كان فقدان القدرة على التعلم هو المحك القرآني الرئيسي للشيخوخة المتأخرة [الهزم أو أرذل العمر] فإن توافر هذه القدرة واستمرارها في مراحل العمر السابقة على هذا التدهور في حياة الإنسان مؤشر على استمرار الرشد الإنساني .

وإذا كان الاستقلال الذي أشرنا إليه محكاً لتحديد الرشد هو في جوهره نتاج للتعلم الاجتماعي ، يصبح التعلم هو جوهر حياة الراشدين بدءاً وانتهاءً . صحيح أن لكل من البداية والنهاية حدوده التشريحية والفسولوجية والبيولوجية بل والقانونية إلا أن الرشد السيكولوجي لا يتحدد إلا بشغف إلى مزيد من التعلم عند الاستقلال ثم توقف عن التعلم عند العجز والهزم بل نكاد نقول أن التوقف عن التعلم هم اللحد السيكولوجي للإنسان حتى ولو عاش من بعده أعماراً أو أعماراً .

### الشيخوخة في اللغة والثقافة :

يطلق مصطلح العمر الثالث للإنسان على مرحله الضعف الثاني بعد مرحلة الرشد أو القوة وتحفل اللغة العربية بألفاظ كثيرة تدور حول هذه المرحلة وخصائصها حيث يوجد حوالي ١٤ كلمة تدور حول حدود هذه المرحلة (الكبير - الشيخ - المسن - النهشل - القم - الهرم ... إلخ) كما يوجد طائفة أخرى من الكلمات العربية تدور حول خصائص هذه المرحلة من النواحي الجسمية والعقلية .

متى تبدأ الشيخوخة ؟ على الرغم من أن الشيخوخة حالة نفسية وعقلية لدى الكثيرين إلا أنه توجد مجموعة أحداث ترتبط بالجسم والعقل تعد معالم لبده هذه المرحلة .

**محك العمر** (محك اعتباطي) كمحك العجز في الرشد . فالشيخوخة ليست محض بلوغ عمر زمني معيني ، بل أن بلوغ الإنسان عمراً زمنياً في أي طور من أطوار الحياة لا يعنى بالضرورة حدوث جميع التغيرات البيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية المصاحبة التي يفترض حدوثها في هذا الطور عند الجميع وفي وقت واحد ، وقد أكدت حقائق علم النفس في مختلف مراحل الحياة أن الأفراد في نفس العمر الزمني يختلفون في هذه المحكات الأخرى وينطبق هذا على الشيخوخة انطباقه على جميع أطوار الحياة الأخرى .

فكما أن الرشد لا تحدده - سيكولوجياً - حدود الزمن ، ولو كان قانونياً فإن الشيخوخة لها نفس الطابع فسن ٦٠ أو ٦٥ ليس حد فاصل بين القوة والضعف ،

والعزيمة والوهن ، والتطور والتفكير .

لان الشيخوخة السيكولوجية لا تتوازي بالفروق مع التغيرات الجسيمة التي ربما تحدث في هذا السن وما بعده فقد تحدث مبكرة أو متأخرة ويتوقف ذلك على مايلي :

١ - مدى استثمار الفرد لإمكاناته السيكولوجية - معرفية ووجدانية واجتماعية .

٢ - يحتاج الفرد في هذا الاستثمار طوال عمره كله في شبابه وخلال سنوات نضجه ورشده ، مما يؤدي به إلى استمرار الاستقلال والرغبة المستمرة ، بل المتزايدة في التعلم وخاصة التعلم الذاتي .

٣ - تنوع الاهتمامات والميول .

ومعنى ذلك أن المرء إذا بدأ في افتقاده استقلاله السيكولوجي وتوجه الفرد نحو الإنكاس وإلى الاعتماد من جديد فهذا هو المؤشر على التحول السيكولوجي نحو الشيخوخة ومع التقدم فيها [أى الشيخوخة] يزداد الاعتماد الذى يصبح حينئذ علامة بارزة على التدهور ، بل قد يظهر النكوص أو العودة إلى أنماط مبكرة من السلوك ومستويات أبسط من النشاط وراء ذلك كله عودة إلى الاعتماد والذى هو علامة الضعف الثانى ، كما كان علامة الضعف الأول فى الطفولة والصبا وصدق الله تعالى فى قوله : « ومن نعمه ننكسه فى الخلق » .

وهكذا نقول إنه إذا كان الإستقلال هو المحك السيكولوجى للرشد فإن فقدان هذا الإستقلال والعودة إلى الاعتماد هو المحك السيكولوجى للهرم والعجز والتوجه نحو أرذل العمر ويصاحب هذا الاعتماد توقف عن التعلم - التعلم الذاتى بالطبع ويؤدى بالمرء إلى اتجاهات سالبة نحو الذات والآخريين والعمل والحياة عادة . وهذا فى ذاته يؤدى إلى الهرم بمقدار يفوق ما تفعله التغيرات فى أنسجة المخ وقد تحدث هذه الشيخوخة بعلاماتها تلك للإنسان قبل الأوان .

فالذين لا يواصلون ميولهم الاجتماعية والشخصية ولا يتوافقون مع أدوارهم الجديدة بعد التقاعد سرعان ما يتحولون إلى الاكتئاب والعجز ثم يتدهورون جسمياً وعقلياً ، وحين يفقد المرء الرغبة فى التعلم أو القدرة عليه يكون هذا - كما قلنا - محك الشيخوخة الحقيقى .

ولعل هذا التعلم المستمر - والله أعلم - هو مصدر الحكمة والخبرة التى أشار إليها القرآن الكريم حين يصف مرحلة الضعف الثانى للإنسان بأنها مرحلة [ضعف

وشيبة] بمقارنته بالضعف الأول الذى وصفه [محض الضعف] لان ضعف الصبا  
صيروره مستمرة إلى هذه الحكمة التى تتوافر للإنسان طوال حياته حتى تصل إلى  
تاجها بقول الله تعالى [ثم جعل من بعد قوه ضعفاً وشيبة] .

أما إذا افتقد الإنسان القدرة على التعلم فإنه يكون قد وصل إلى أرذل العمر  
وهى مرحلة يصفها القرآن الكريم بأن من سماتها الرئيسية أن المرء «لا يعلم من بعد  
علم شيئاً» .

بقول الله تعالى : «ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد  
علم شيئاً ..» (الحج : ٥) .

وحيثذ يفتقد الحكمة والخبرة وينتكس إلى نوع من الضعف أشبه بمرحلة  
الضعف الأول الذى كان عليه قبل الرشد .

التعلم - إذن - هو جوهر قوة الإنسان ، والعجز عنه هو علامة الضعف  
الإنسانى وفقدانه هو مؤشر الانحدار والنهاية .

ولهذا السبب لابد أن يحتل تعليم المسنين مكانة بارزة فى أى برنامج  
لرعايتهم، ومن دلائل الإعجاز السيكولوجى للقرآن الكريم ، ما يؤكد علماء  
الشيخوخة المعاصرون من أن التعلم المستمر يودى إلى تحسن فى نوعية الحياة  
للمسنين ويهئ لهم فرصا لاستثمار قدراتهم على نحو يتجاوز محض مسايرة  
وملاحقة التغيرات الاجتماعية والثقافية من حولهم ، فالتعلم يقدم لهم المعرفة  
والمهارة ، كما يوفر لهم إمكانية التطبيق مع الظروف المتغيرة ، وهو بذلك يؤثر فى  
اتجاهاتهم وجوانب تكوينهم المختلفة .

إن التعليم يزود المسنين أولاً بالمعارف والمهارات اللازمة للمحافظة على  
صحتهم وتحسينها ، كما قد تفيدهم بعض المعارف والمهارات التى يكتسبونها فى  
الحصول على عمل لبعض الوقت على الأقل يهئ لهم فرصة الشعور بالاستمرار  
والمواصله بالإضافة إلى ما يوفره لهم من طرق للتعامل الفعال مع ظروفهم  
الاقتصادية المتغيرة التى يترتب عليها نقص الدخل نتيجة التقاعد ، كما يمكن للتعلم  
أن يقدم لهم الحقائق العلمية التى قد تودى إلى تغيير الصورة النمطية السلبية السائدة  
لديهم - قبل غيرهم - عن الشيخوخة والتقدم فى السن . بالإضافة إلى ما يمكن أن  
يتحقق لهم بالتعلم من اتساع لنظرتهم للحياة ، وتحديد أهداف ملائمة جديدة لهذه  
المرحلة النمائية ، ومن إمكانية استطلاع واستكشاف لبناء علاقات اجتماعية جديدة

وتفاعل اجتماعى موجب مع أفراد مشابهيين لهم ، وبهذا يلعب التعلم دوراً خطيراً فى تجديد اهتمامات المسنين بالحياة ، ويزودهم بالرغبة فى الإسهام الجاد فى تطوير أنفسهم ومجتمعهم .

وبالطبع يحتاج الأمر لبعض الوقت حتى تفتح المجتمعات الحديثة أبواب التعليم للمسنين ، كما فتحتها من قبل للراشدين بعد السن الرسمى للتعليم ويرجع ذلك إلى الاتجاهات السلبية نحو الشيخوخة أضف إلى ذلك أن النموذج السائد للتعليم أنه موجه للإعداد للمستقبل ، وهذا النموذج أصح ما يكون للأطفال والمراهقين والشباب ، وهو يصلح إلى حد ما مع الراشدين . أما مع الشيوخ والمسنين فقد اعتبر التعليم بالنسبة إليهم نوعاً من الهدر للوقت والمال والجهد ، فأين المستقبل فى رأى هؤلاء فى تعليم المسنين ؟ أضف إلى ذلك الاعتقاد السائد عن عجز المسنين كافة عن التعلم . إلا أن هذه الأفكار جميعاً تعرضت لتغيرات جوهرية خلال العقدين الماضيين ، فالمسنون قد يعيشون بعد التقاعد سنوات عديدة وهم فى صحة جيدة كما تقدمت بحوث الشيخوخة بحيث يسرت الفرصة لشيخوخة سوية لزم أطول قبل بلوغ مرحلة أرذل العمر ، وترتب على ذلك كله تغير جوهرى فى اتجاهاتنا ومعتقداتنا وأفكارنا حول تعليم المسنين .

ويمكن أن نلخص الاتجاهات الراهنة حول هذا الموضوع فى ثلاث فئات جوهرية : -

١ - تعليم المسنين هو وسيلة لقضاء وقت فراغهم الطويل ، وهو بذلك طريقة للترويج عنهم من ناحية ، واندماجهم فى مهام تشغلهم من ناحية أخرى ، وهذا الرأى يمثل الاتجاه الثقافى العام فى معظم المجتمعات الحديثة .

٢ - تعليم المسنين هو الطريق التى يعتمد عليها المجتمع فى معاونة المتقدمين فى السن على المشاركة الكاملة فى أنشطته وذلك من خلال تنمية المهارات المتبقية لديهم ، وتدريبهم على تعويض النقص الناشئ عن المشكلات الفسيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية التى يتعرضون لها ، ومساعدتهم على العيش حياة طبيعية وقد يعينهم هذا التعليم على إن يبدأوا حياة مهنية جديدة أو المشاركة فى الأنشطة والأعمال التطوعية من خلال مؤسسات المجتمع المعرفى وهذا الاتجاه هو الرأى الغالب على جمهوره كبيرة من العلماء .

٣ - تعليم المسنين هو السبيل لتحقيق نموهم الشخصى ورضائهم عن ذواتهم وهذا الرأى يتفق عليه علماء النفس من أنصار النمو الوجدانى ، فالتعليم عندهم يعين المتقدم فى السن على إحراز التكامل فى شخصيته وإسراء معنى حياته .

ويبدو لنا أن هذه الاتجاهات نحو تعليم المسنين لا تتعارض فيما بينها ويتعين للمتخصص أن يصمم برنامجها فى صورة هذه الاستراتيجيات الثلاث بحيث يحقق للمتقدم فى السن تنمية فى الجوانب المعرفية والوجدانية والمهارية والاجتماعية جميعاً ، وبذلك يمكن له أن يحقق نموه الشخصى ، ونموه كمواطن مسئول ، ونموه من خلال أنشطة الترويح وقضاء وقت الفراغ ، وبهذا يمكن للمربين أن يحققوا إبداعاً حقيقياً فى مجال لم يطرقوه بعد بالاهتمام الواجب .